الباب الأول

بزوغ نجم

١٨٤٩ – ١٨٧٩

١٢٦٤ – ١٢٩٦

(النظـر واجـب بالإجمـاع فإيـاك إيـاك أن
تجعل العجز فطرة)

محمد عبده

إذا كان الطفل أبا الرجل ومن سجايا الصبا ما يدخل القبر مع الشيخ الهرم، فإنه لا اجتهاد مع النص الوارد عن الإمام في مذكراته:

(أصبت نجاحا كثيرا فيما عنيت به. أخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي إليه ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي وشيء منها مما احتف حولي وطائفة منها من أصالتي وخطلي. ومن الذي يستطيع أن يفصل ذلك غيري حتى يكون إن شاء الله عبرة لمن يأتي بعدي؟).

فلنستمع إلى حديثه عن نشأته وطبعه وبدايات خطوه. فهذه هي النواة أم النخلة:

(تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت إلى دار حافظ للقرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة. ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءا من مكتب آخر ليقرأ القرآن عند هذا الحافظ ظنا منهما أن نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ. بعد ذلك حملني والدي إلى طنطا حيث كان أخي لأمي الشيخ مجاهد رحمه الله، لأجود القرآن في المسجد الأحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد. وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ الهجرية.

وفي سنة ١٢٨١ هجرية جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الأحمدي بطنطا، وقضيت سنة ونصف لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم، وأن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها.

وهربت من الدروس واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر. ثم عثر علي أخي فأخذني إلى الجامع الأحمدي وأراد إكراهي على طلب العلم فأبيت.. فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم. وتزوجت في سنة ١٢٨٢)

ثم يعلق بقوله:

(فهذا أول أثر وجدته في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الأزهر. وهو الأثر الذي يجده ٩٥% ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من يلتزمون هذه السبيل في التعليم، سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم. غير أن الأغلب من الطلبة لا يفهمون أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا. فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال وهم في أحلام الأطفال. ثم يبتلى الناس بهم وتصاب بهم العامة).

وهذا الذي يحدثنا به أول الحديث يحدثه في النفس نص ذلك الدرس الأول في شرح الكفراوي على الأجرومية (بسم الله الرحمن الرحيم: الباء حرف جر. واسم مجرور بالباء وعلامة جره كسرة في آخره. والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أؤلف. وأؤلف فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم. والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا. هذا إن جعلت الباء أصلية. وإن جعلتها زائدة فلا تحتاج إلى متعلق به.

ويقول في الإعراب حينئذ: واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. والخبر محذوف تقديره اسم الله مبدوء به).

***

وأول ما نستفيده من الواقعة والتعليق عليها أن الطفل المولود في سنة ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩ تعلم القراءة في دار أبيه حيث كان نزوعا للعلم وجاه أو رفاه، منذ قرأ القرآن على حافظ ولم يشارك الآخرين إلا بعد أن سبقهما بقراءة شاملة.

وسيبقى فيه من آثار القدرة على العمل والمبادرة به وحده، والاستعداد الكامل لما يتصدى له. وستتلألأ في ألفاظه وأسلوبه آثار التجويد. فتحلو العربية على لسانه حلاوتها في آذان سامعيه وأذهان قرائه، ويبلغ بأسلوبه أعلى مستويات البلاغة.

ولا يلاحظ تأخره في الجلوس للدرس فقد جاءه حافظا ومجودا للقرآن. وهاتان درجتان تشرئب إليهما أعناق الطلبة. وحفظ القرآن مدخل لكل العلوم وخاصة الفقه وعلوم اللغة.

وإنما يلاحظ هربه واختفاؤه، وإصرار على الانقطاع وتصفية المتاع وإحصان نفسه بالزواج، والامتناع عن العودة إلى طلب علم لا ينفع. فهذه أمارات أمور كلية في غريزته:

- أولها استقلال الإرادة وإعلانها وفرضها على أخيه وأبيه وذويه، "فالحرية الفكرية أو الشخصية" فطرة فيه. يستمسك بها لنفسه ويسلم بها لغيره ويعلمها الجميع. ويعلنها ركنا ركينا للإسلام، ويطالب بها لبلاده.
- أما الثاني فميلاد هذه العزمة الصادقة في المعهد الديني، ومن جراء العلوم التي تدرس فيه فسنراه – من وحدة شخصيته واطراد فكره – يجعل "إصلاح التعليم الدينين واللغوي والقضاء الشرعي" رسالة حياته.
- وأما الثالث فهو منع "الصدمة" من أن تعطل العقل أو العمل لتنافر "الغايات" النبيلة و"الوسائل" البالية. فإذا كان الدرس غير مفهوم تعين إحداث التفاهم بإصلاح حال المدرس، لا الصياح في وجه المجتمع. ومن أجل ذلك سينشرح صدر الفتى الثائر في الجامع الأحمدي لكل ما هو عصري، تأذن به الشريعة، ويمسي "التطور" وسيلة يتوسل بها أو غاية يتغياها.

ولا نستطرد في الاستنباط من موقف سلبي للصبي. ولنتابع الترجمة الذاتية للعمل الإيجابي الذي تهب به السماء موهبة لرجل هو هبة لأمة:

الشيخ درويش:

بعد أن تزوجت بأربعين يوما جاءني والدي ضحوة نهار وألزمني بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم.. وأصحبني والدي بأحد أقاربي وكان قوي البنية شديد البأس.. فقلت لصاحبي: أما مداومة السير فلا طاقة لي بها.. وأجريت الفرس هاربا من مشادته وقلت إني ذاهب إلى كنيسة أورين – بلدة غالب سكانها من خؤولة أبي – وقد فرح بي شبان القرية لأني كنت معروفا بالفروسية واللعب بالسلاح..

وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتي..

ذلك أن أحد أخوال أبي، واسمه الشيخ درويش، سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا.. ووصل في أسفاره إلى طرابلس الغرب، وجلس إلى السيد محمد المدني [1].. والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الآستانة وتوفي بها [2]، وتعلم عنده شيئا من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية [3] وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه، ثم رجع من أسفاره إلى قريته واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة.

جاءني هذا الشيخ صبيحة الليلة التي بتها في الكنيسة وبيده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني إلى بعض مريديه.. وسألني أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره فرفضت طلبه بشدة.. ولما وضع الكتاب بين يديه رميته إلى بعيد.. لكن الشيخ تبسم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر. فاندفع يفسر لي ما قرأت بعبارة واضحة، تغالب إعراضي فتغلبه وتسبق إلى نفسي.. وبعد قليل جاءني الشبان يدعونني إلى "ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة" في نهر قريب من القرية، فرميت الكتاب وانصرفت إليهم.

---

(١) ضريحه الآن في مصراتة بليبيا.

(٢) محمد ظافر الطرابلسي من مشايخ الدرقاوية وهي طريقة شب فيها السنوسي، وهو من نسل الإمام الحسن وفقيه مالكي، وكان الشيخ ظافر مقربا من السلطان ع بد الحميد سلطان تركيا.

(٣) أتباع أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ – وهو من نسل الإمامين الحسن والحسين. نشأ في بلاد المغرب وساح في البلاد الإسلامية واستقر بمصر حيث مات ودفن على شاطئ البحر الأحمر وكان فقيها درس الفقه المالكي.

بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح علي في قراءة شيء منه فقرأت ثم تركته إلى اللعب. وفعل في اليوم التالي كما فعل في الأول. أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها، فقال لي إنه في حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه، ومضيت أقرؤه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة.. وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته. وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم.

كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية. وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق، وتطهيرها من دنس الرذائل، وتزدهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا.

لم يأت علي اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلي ما كنت أحبه من لعب ولهو، وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إلي ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم..

وفي اليوم السابع سألت الشيخ: ما هي طريقتكم؟ فقال: طريقتنا هي الإسلام.

فقلت: أو ليس كل الناس بمسلمين؟ قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب..

سألته: ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات؟

قال: لا ورد لنا سوى القرآن. تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر..

قلت: إني لم أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا!

قال: أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل. وإذا خلوت فاذكر الله..

فلم تمض عليّ بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير في عالم آخر.. ولم أجد إماما يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد..

هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر.. وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا..

وفي اليوم الخامس عشر مر بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني أن والدتي ذهبت إلى طنطا لتراني.. فأصبحت مبكرا إلى طنطا..

وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢.. وجلست في الدرس (شرح الزرقاني على العزية والشيخ خالد على الأجرومية) فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما اسمع والحمد لله.

وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت إلى الأزهر..

وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب إلى "محلة نصر" [٤] لأقيم بها شهرين من منتصف شعبان إلى منتصف شوال.. وكنت عند وصلي إلى البلد أجد خال والدي الشيخ درويش قد سبقني إليه.. فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم إلى يوم سفري. وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول: ما درست المنطق؟ ما درست الحساب؟ ما درست شيئا من مبادئ الهندسة؟ وهكذا.. وكنت أقول له: بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الأزهر فيقول: طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان.. فكنت إذا رجعت إلى القاهرة ألتمس هذه العلوم.. إلى أن جاء المرحوم "السيد" جمال الدين الأفغاني إلى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ.

وقد صاحبته ابتداء من شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنده بعض العلوم الرياضية والحكمية والكلامية وأدعو الناس إلى التلقي عنه كذلك. وأخذ مشايخ الأزهر من طلبته يتقولون علينا الأقاويل [٥].. فكنت إذا رجعت إلى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان

---

(٤) أوضح الإمام في مذكراته أنها سميت باسم رجل كانت إقطاعا له، وأن جدود الإمام لأبيه كانوا يسمون بيت التركماني، وأن جدوده لامه يقال إنهم يتصلون في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) جملة الأقاويل أنه يدرس في بيته علوما لا تدرس في الأزهر. أو لا يذهب إلى الأزهر. إلا يوم الجمعة. أو أن الكبراء والأمراء والطلاب يغشون دروسه، أو أنه يحضهم على الكتابة في الصحف وأنهم يكتبون فيها. ويضيف الشيخ محمد عبده (بقي علينا أن نذكر له وصفا لو سكتنا عنه سألنا عن إغفاله. وهو أنه كان يتوسع في إتيان بعض المباحات كالجلوس في المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار. وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيدا عن اللهو وكان يوافيه كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم – وهذا الوصف مما عده عليه بعض حاسديه. "لكن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه" وأي غضاضة على المرء المؤمن في أن يفرج بعض همه بما أباح الله له) وكانت بعض هذه المجالس في قهوة متاتيا التي تقع

يقول لي: (إن الله هو العليم الحكيم. ولا علم يفوق علمه وحكمته. وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل. وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة. فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه).

***

وترى بادي الرأي أن الرياضة الباكرة ستحفظ عليه العافية طول حياته. وأن السباحة ستعلمه الصبر الجميل والسبح الطويل بين التيارات المتدافعة. كما تعلمه الفروسية أن يتوازن وينضبط إذ ينطلق، وأن يركض أو يسبق والناس يمشون، أو يتخلفون. أما الرماية فعلمته البدار بالعمل بيده وفكره والتركيز على هدفه، والاستعداد العصبي والذهني. وكل أولئك من السنة [٦].

وترى أن الشيخ درويش أعاده إلى الجادة بالمثابة والمصابرة، وباليسر الذي يروض النفوس النافرة، وبالطريقة المنجبة في التربية والمنجحة في الطب وهي استعمال عناصر الصحة الذاتية في مقاومة عوامل المرض. إذ جعله يقرأ له، ثم تركه يقرأ لنفسه، فتفتحت نفسه بنفسه. وكل ذلك منهج قرآني هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأن الشيخ درويش أنقذه بالقرآن وفصل له طريقة فهمه. فالقرآن يخاطب العقل والفطرة للناس كافة، إن علماء وإن جهلاء، ويهب لكل قارئ معاني غضة (يكفيك أن تقرأ الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل) والفيض لا يكون إلا لمن أخلص الدعاء وذكر الله، ذلك قوله (وإذا خلوت فاذكر الله).. وللشيخ درويش مستوى علمي وإن كان يخفيه – كدأب المتصوفة الأصلاء – فهو يحفظ الموطأ. وناهيك به وبصاحبه. فهو نواة فقه الإمام مالك بن أنس.

وأن الشيخ درويش خلص التلميذ من قيود التقليد البغيض إلى عالم التوحيد والزهادة والعبادة وإلى العمل بذلك كله. فتقشف وتهجد وتوجه من جهاد النفس إلى اجتهاد الرأي، فراح يدق الأبواب التي سكرها من قبل بيده. ثم يسعى بعد أشهر إلى الملأ الأعلى في الأزهر في فبراير سنة ١٨٦٦ (شوال ١٢٨٢)، ثم ينطلق من علوم القرآن والحديث والشريعة واللغة إلى

خلف الأوبرا المصرية التي أقامها إسماعيل على شاطئ بركة الأزكية التي ردمت وصارت حديقة كبرى تتنفس فيها القاهرة.

(٦) وهو القائل ﷺ (علموا أبناءكم السباحة والرماية..) والقائل "كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو لعب إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه ومشى الرجل بين الفرضين وتعلم الرجل السباحة" وكان له عليه الصلاة والسلام فرس اسمه "سيحة" راهن عليه فجاء سابقا فهش لذلك.

علوم أخرى لم تبق منها في الأزهر إلا ذكريات. وبعد أن كان اعتزال الناس ديدنا له أصلح باله الشيخ درويش. قال في المذكرات:

(لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره، بالصوم تارة وبلبيس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى، قال لي عندما رجعت إلى محلة نصر سنة ١٢٨٨ إلى متى هذه العزلة..

فذكرت له اشمئزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي إذا ما لقيتهم، وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم. فقال لي: هذا من أقوى الدواعي إلى ما حثثت عليه. فلو كانوا جميعا هداة مهديين لما كانوا في حاجة إليك. ثم أخذ يستصحبني فأجيبهم وأنطلق في القول على وجل في أول الأمر. وما زال بي حتى وجد عندي شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم.

وفي شوال من تلك السنة ودعني وبكى بكاء شديداً. ومات في السنة التالية ١٢٨٩ – ١٨٧٣م).

هكذا صيرته آخرة لمسات شيخه ألوفا مألوفا، بعد إذ أودعه سر التصوف الصادق: القرآن والسنة وقهر النفس والتزام القيام بالعمل الصالح. ووصاه بالعلوم الحديثة.

في الأزهر

يقول فتحي باشا زغلول في تقرير لجنة إصلاح الأزهر المطبوع سنة ١٩١٠: (جاء على الأزهر زمن، العهد به قريب، كان الكثيرون من أهله يعتبرون استبدال الحنفيات بالميضآت منافيا للدين، وتعهد الكتب بالحفظ والصون في مكان خاص مخالفا للدين، وتعليم العلوم الحديثة مفسدا للدين)!

وفي العهد الذي دخل فيه تلميذنا الأزهر كانت العلوم الشرعية مقصورة على الفقه والأصول والتوحيد والحديث والتفسير، أما علوم العربية فهي النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق.. لكن الحساب يدرس في غير أوقات العمل الرسمية!

وعندما نقارن هذا الثبت الضئيل من العلوم بما كانت تحويه إجازة الأزهر في القرن الثاني عشر تظهر على فداحة الانحدار بالمستوى العلمي، ومخاطر استمراره، فقد كان فيها فوق علوم الفقه واللغة التي سلفت، (علوم الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرقات وأسباب الأمراض وعلامتها، وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة، وعلم الأريثماطيقي وعلم المزاول، وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن، وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم).

لكن مدافع الحملة الفرنسية أسمعت رجال الأزهر صوت أوربا، كما كان علماؤها يدعونهم لزيارة معالمها، ومن أبرز الذين زاروها الجبرتي المؤرخ [٧] والشيخ حسن العطار.

ولد الشيخ العطار سنة ١١٩٠ هـ سنة ١٧٧٦م ومات سنة ١٨٣٥م – ودرس الطبيعة والفلك والهندسة والمنطق والطب وبعض الميكانيكا وكان دائم الاطلاع على الترجمات – ولما أنشأ محمد علي صحيفة الوقائع المصرية ولاه تحريرها ثم مشيخة الأزهر.

---

(٧) وصف الجبرتي ما رأى هناك. قال بين ما قال (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة وصب منها شيئا في كأس، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى، فعلا الماءان. وصعد منها دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجرا أصفر. فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه. ثم فعل ذلك بمياه أخرى. فجمد حجرا أزرق. وبأخرى فصار حجرا أحمر ياقوتيا. وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرانة انزعجنا له. فضحكوا منا....).

وقد وجدت بخطه هوامش على كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء وطبقات الأطباء. وله تآليف في الطب وغيره. لكن أثره الدائم هو اختياره رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣) من بين علماء الأزهر ليكون إماما للمبعوثين إلى أوربا وتكليفه أن (ينبه على ما يقع في هذه السفرة وعلى ما يراه ويصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة وأن يقيده ليكون نافعا في كشف القناع عن محيا تلك البقاع). كما روى رفاعة بك. بعد أن مات الشيخ العطار سنة ١٨٣٥.

ولم يأل رفاعة جهدا في تنفيذ الوصية فأصبح مثالا لما يمكن أن يتطور إليه رجل الأزهر: أتقن الفرنسية وتعلم علوم أوربا ودعا إلى تعليم المرأة وكتب عن الثورة الفرنسية وعن تقييد النظام الملكي وترجم الدستور الفرنسي. وعلى يده بدأت حركة الترجمة الحديثة من علوم أوربا ونشأت مدرسة الألسن ابتغاء إعداد رجال جدد يديرون الحكومة العصرية ولتكون رأسا لنظام تعليمي جديد.

وهوي قول بعد أن يذكر علوم اللغة والفقه وعلماء الأمهر: (إن هذا وحده لا يفي للوطن بقضاء الوطر والكامل يقبل الكمال، كما هو متعارف عليه عند أهل النظر. ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة، منوط بعد ولي الأمر بهذه العصابة، التي كان ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة المنيفة، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية).

***

اختار تلميذنا الجديد حلقة الشيخ عليش حيث الفقه المالكي – مذهب الشيخ درويش – كما جلس إلى الشيخ الجيزاوي والشيخ البحراوي والشيخ الرفاعي، وفي الأدب اختار الشيخ محمد البسيوني وكان شاعرا، حسن البزة، سيعين إماما للمعية الخديوية.

وأما علوم المنطق والفلسفة لها فاختار لها حلقة الشيخ حسن الطويل (١٨٩٩) وهو صوفي عريق.

- ينصحه رؤساؤه أن يلبس خير اللباس إذ يزور على باشا مبارك (الوزير) دار العلوم – فيقول: إذن ابعث بجبة إلى دار العلوم أما إن اردت حسن الطويل فهو في ملبسه هذا.
- ويدعي في رمضان لدى السادة ويقتصر لإفطاره على طبق الفول.

- ويطرد من دار العلوم فيعينه على المعاش صاحب مقهي. فلما عاد قاسم الرجل مرتبة كما فعل معه وهو مطرود.

وسنرى التلميذ بعد بضع سنين يترك المذهب المالكي الذي لا يطبق في المحاكم إلى المذهب الحنفي المطبق. فيجمع بدراسة المذهبين أكثر الفقه الإسلامي. وهذا هو التأسيس المثالي لفقيه مطلوب إليه التطور. فالمذهب الحنفي "مذهب أهل الرأي" والمذهب المالكي أكثر المذاهب الإسلامية عملا (بالمصلحة).

obeikandl.com

"السيد" جمال الدين الأفغاني:

ثم تفتحت أبواب السماء بقدوم جمال الدين، فقصد إليه مع شيخه حسن الطويل بخان أبي طاقية قريبا من الأزهر فلزمه ابتداء من أول سنة ١٢٨٧ (١٨٧١).

روى الهلباوي بك أنه حضر على جمال الدين في السنوات الثلاثة الأخيرة لمقامه في مصر (١٢٩٢ – ١٢٩٥: ١٨٧٦ – ١٨٧٩) (شرح كتاب الهداية في الفلسفة. وكان يقرؤه بعد الساعة الرابعة في منزله. وبعد صلاة المغرب يلقي علينا دروسا في المنطق في كتاب المطالع. وفي أيام الخميس والجمعة نحضر دروسا في العلوم الرياضية من فلك وحساب ومبادئ الهندسة والقواعد الأربعة من وضع أرسطو. وهكذا عشرة أشهر من كل سنة ابتداء من سنة ١٢٩٢ إلى ١٢٩٥، وأفهمني جمال الدين أن كتب الفقه عبارة عن قوانين ومن العبث الاشتغال بها إذا لم يكن تطبيقها عمليا..).

obeikandl.com

أما محمد عبده فأخذ على جمال الدين [٨] (كتاب الزوراء للدواني في التصوف وشرح القطب على الشمسية. والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق والتوضيح مع التلويح في الأصول والجغميني في الهيئة القديمة وتذكرة الطوسي في علم الهيئة).

وظاهر أن كثرة ما درسه محمد عبده عليه كان في الأصول والتصوف والنطق والطبيعة في حين كانت كثرة دراسة الهلباوي عليه في الرياضة والمنطق، وأن من العلوم ما درسه الجيلان الأول والثاني، ومنها ما كان تجديدا.

---

(٨) يصف التلميذ أستاذه الجديد بقوله: (له سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها. وله لسن في الجدل وحذق في صياغة الحجة لا يلحقه فيه أحد.

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته. وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب.. وهو كريم يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على الله. لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر. يمثل لناظره عربيا محضا. فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنه الحجاز (فالسيد لقيه لأنه من نسل أمير المؤمنين علي وفاطمة الزهراء) ربعة في طوله، وسط في بنيته، قمحي في لونه، عصبي دموي في مزاجه، عظيم الرأس في اعتدال عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر جليل المنظر، هش بش عند اللقاء، وقد وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه).

وهو من مواليد الأفغان تعلم الفارسية فصارت لغة أصلية له ودرس العربية فثقف نفسه بها، ودرس في الهند علوما كثيرة واكتسب من السياسة والارتحال معارف جمة. ومع فصاحته العربية في دروسه كان ينطق كلمة أوربة (الأوربة) ما ينطقها الفرنسيون L' Europe أما بورسعيد فينطقها نطق الإنجليز أو الهنود (برط سعيد).

وكان منهجه – كما يقول – محمد عبده.. (إنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق بالدول القوية فيعود للإسلام وللدين الحنفي مجده، ويدخل في هذا تكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية وتقليص ظلمها عن رءوس الطوائف الإسلامية)، وظاهر أن مصر كانت الدولة التي اختارها لتقود العالم الإسلامي. ففيها وجد الرجال. ومنها نهض محمد عبده وبقية الجماعة لتحرير بلادهم.

حاشية على شرح الدواني – ١٢٩٢ – ١٨٧٥:

بدأ التلميذ في كنف "السيد" (مجاورا منقطعا للتصوف يلبس قميصا يبدو من أعلى جيبه صدره الأشعر وقد أرسل جمة كجمة الدراويش). كما يذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق. ثم شجع فأخرج سنة ١٢٩٠ (١٨٧٣) ما سماه (رسالة الواردات) وهي عبارة عن جزئيات أومأ إليها السيد بكتابتها سنة ١٢٨٨ كما قال تبدأ بعد البسملة والحمد بالثناء على جمال الدين (كالغيث أرسل لإحياء نعمة التفكير في العلوم الحقيقية) وتنتهي بقوله: (هلا تفطنت فيما أدرجت لك من هذه الأقوال إلى أنه وقع الصلح بين الطائفتين العظيمتين في أن الأفعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبد فإنه لا تخالف بينهما في الحقيقة. فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل. الوجود في جميع مراتبه مختار – والحمد لله رب العالمين وحده.. قال مؤلفها: تم تبييضها يوم الأربعاء سادس عشر من شعبان المكرم سنة تسعين ومائتين بعد الألف).

أما الخط الذي تم التبييض به، فهو كما يظهر من الصور الزنكوغرافية لكتابين منه إلى تلميذه "سعد زغلول"، خط لطيف واضح منتظم في حين ساءت خطوط الأزهريين: فالشيخ الدردير (١٢٠١) لا يكاد خطه يقرأ، أما الهلباوي فخطه شبه المقروء أشبه بشوارع لم تعرف خطوط التنظيم. ويدل خط محمد عبده على إسراع يده لتستجيب إلى أفكاره المتدفقة. وسيلازم كلا منهما ما كسب من عهد شباب. فالهلباوي محجاج وثاب بين الأدلة، يخطب ولا يكتب إلا قليلا، أما محمد عبده ففقيه في المقام الأول وكاتب مترسل من أعلى طبقة.

وبعد عامين آخرين (في سنة ١٢٩٢: ١٨٧٥) فاجأ التلميذ أوساط الأزهر بحاشية وضعها على شرح الجلال الدواني على العضدية (لعضد الدين الإيجي ٧٥٦هـ – ١٣٥٥م) وكان التلميذ في الخامسة والعشرين يتهيأ لدخول امتحان العالمية بعد عامين.

وبمقارنة الدراستين يتبين التقدم الذهني والمذهبي والبلاغ فيما بين الرسالتين. ففي الأول تصوف غامض وسجع بخواطر فيها فلسفة أما الثانية فكتاب كامل في أمور من دقائق علم الكلام (التوحيد). وهي بمكانتها في الدقة العلمية واستقلال صاحبها بآرائه في أهم أبواب علم الكلام تعتبر منطقا له من قاعدة صلبة هي حرية الاجتهاد والاختلاف.

ولقد شرع منذئذ يطالع الملأ بآرائه في صحيفة أوندي، علمي أو ثقافي أو سياسي، وسنقرأ من الرسالة فقرات لنشهد شذرات من شهادة ميلاد فقيه حل مستقل، صاحب رأي، لا يفرق بينه وبين العضد والدواني إلا تعبيره الأفضل.

هو في حاشيته يأخذ الدين من مصادره في القرآن والسنة ويلتزم النص القطعي الورود والدلالة أو المعنى القطعي الذي تتضافر عليه نصوص، لا يفسق المسلم أو يكفره، وهو مستقل لا يتعصب أو يقلد ومجتهد يسير مع الدليل.

وقد يستوقف النظر، كمثل ما يفسر قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ فيقول فيه (قد يعرف النبي بإنسان فطر على الحق علما وعملا بحيث لا يعلم إلا حقا ولا يعمل إلا حقا على مقتضى الحكمة، وذلك يكون بالفطرة أي لا يحتاج فيه للفكر والنظر ولكن التعليم الإلهي. فإن فطر أيضا على دعوة بني نوعه إلى ما جبل عليه فهو رسول أيضا وإلا فهو نبي وليس برسول. فتفكر فيه فإنه دقيق).

وقد ينعي على الشارح ركة تعافها نفسه. فيقول: (هذا الكلام في غاية البرودة مخالف للذوق والعقل والشرع ورمي بغير برهان) أو يقول: (هذا البيان الذي ذكره الشارح مشتمل على مبادئ غير بينة وبيانات غير قيمة).

وقد يغريه الدواني فيتجاريان في ذم أهل الزمان! يقول الدواني: "وإلى الله المشتكى من زمان انطمس فيه معالم الفضل وعمر فيه مرابط الجهل وتصدر فيه لرياسة أهل العلم والتمييز بينهم من عرى عن العلم متوسلا في ذلك بالحوم حول الظلمة والانخراط في سلك أعوانهم وخدامهم والسياسة الباطلة سعيا لتحصيل مراميهم. خذلهم الله".

فيضيف قول الكلنبوي ليعقب على القولين فيقول: (قال الكلنبوي في حاشيته على هذا الكتاب: "قيل ولعمري إنه أفضل من زماننا فنحن أحق بهذا المشتكى وأقول الحمد لله تعالى والشكر له على ما أغنانا عن الشكاية، إذ جميع هذه الشكايات لعله ترتب المطالب الدنيوية على العلوم والمعارف. وذلك زمان كانت تعد فيه العلوم والمعارف من الكمالات. وقد انتهينا إلى زمان تعد فيه العلوم والمعارف من المعايب. فلا شكاية".

وأنا أقول قد غبن الشارح والحواشي أهل زمانهم وكسفوا شموس آفاقهم فإن أزمنتهم وأمكنتهم كانت العلوم فيها منتشرة والعلماء بعلومهم مفتخرة، وكان للسان أن يتكلم وللعالم أن يتعلم، وقد انتهينا إلى زمان يفتخرون فيه بالجهالة ويشيدون بالضلالة ويحكمون بكفر من طالع كتب الكلام.. ولكن الشكوى إلى الله. وليس في زماننا إذن تسمع ولا قلب يجزع. فإن كنت على شيء من العلم فاتخذ لك قبرا وإلا أوجعوك ضربا وألقموك حجرا.. ولا نطيل الكلام فإن القول لئام).

***

استفتح التلميذ – العالم – حاشيته ببيان مسهب فيه جماع فكره وطريقته – طول حياته – فروى حديث النبي ﷺ.

(ستفترق أمتي ثلاثة وسبعين فرقة. كلها في النار إلا واحدة. قيل ومن هم؟ قال: الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي).

ثم قال بين ما قال: (واعلم أن هذا الحديث قد أفادنا أن يكون في الأمة فرق متفرقة وأن الناجي منهم واحدة.. وكون الناجي منهم واحدة أيضا حق لا كلام فيه. فإن الحق واحد هو ما كان النبي عليه هو وأصحابه. فإن ما خالف ما كان عليه النبي فهو رد.

أما تعيين أي فرقة هي الفرقة الناجية أي التي تكون على ما هو عليه واصحابه فلم يتبين إلى الآن. فإن كل طائفة ممن يذعن لنبينا بالرسالة تذهب فتجعل نفسها على ما النبي عليه وأصحابه.. فكل يدعي هذا الأمر ويقيم على ذلك أدلة.. مثلا الفيلسوف يقول.. والصوفي.. والمعتزلي.. والسني.. والشيعي.. وأن المجسمة يشهدون.. والأشاعرة [٩].. فكل يبرهن على أنه الفرقة الناجية المذكورة في الحديث..) ويضف:

(.. فإن للناظر أن يقول: يجوز أن تكون الفرقة الناجية الواقفة على ما كان عليه النبي وأصحابه قد جاءت وانقرض وأن الباقي الآن من غير الناجية. أو أن الفرق لم تبلغ الآن العدد

---

(٩) يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه (تمهيد تاريخ الفلسفة الإسلامية): (أما النهضة الحديثة لعلم الكلام فتقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية. ويسمى أصحاب هذا المذهب الأخير أنفسهم (بالفلسفية). ولعل الغلبة في بلاد الإسلام لا تزال إلى اليوم لمذهب الأشاعرة).

وستستعمل (السلفية) في هذا الكتاب بمعناها الأعم: عمل السلف الصالح في الأجيال المفضلة.

وأن الناجية إلى الآن لم توجد وستوجد. وأن جميع الفرق ناجية حيث إن كلا مطابق لما كان عليه النبي وأصحابه من الأصول المطلوبة لنا كالألوهية والنبوة والمعاد.. وأن بقية الفرق ستوجد بعد..).

ويضيف (وموجب هذا التردد أنه ما من فرقة إلا ويجدها الناظر فيها معضدة بكتاب وسنة وإجماع وما يشبه ذلك، والنصوص فيها متعارضة من الأطراف. ومما يسرني ما جاء في حديث آخر (أن الهالك منهم واحدة).

ويقول (وبالجملة فتحقيق الفرقة الناجية.. مشكل من وجوه.. وخامسا قد أجمع أهل التحقيق من كل طائفة وخصوصا الشيخ الأشعري على أن المقلد في أصول دينه ليس بمستيقن.. وكل من ليس بمستيقن في الأصول فهو على ريب فيها. وكل من كان كذلك فهو كافر..).

ويقول: (والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل أن يذهب الناظرالمتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع الوجود. ثم منه إلى إثبات النبوات. ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة، كان ما أدت إليه ما كان، لكن بغاية التحري والاجتهاد. ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه فوجده بظاهره ملائما لما حققه فليحمد الله على ذلك وإلا فليطرق عن التأويل ويقول: آمنا به كل من عند ربنا. فإنما لا يعلم مراد الله ونبيه إلا الله وبينه).

ويقول:

(.. فالنظر واجب بالإجماع.. فإياك إياك أن تجعل العجز فطرة).

ويقول:

(فاسلك سبيل السلف واحذر [١٠].. ومن كان على ما كانوا عليه فهو في أعلى غرف الجنان.

---

(١٠) السلف يسلمون بالنص ويفوضون في مدلول المتشابه ويقطعون بعدم المماثلة بين الله وعباده ويتقدون العقائد كما كان يعتقدها السلف الصالح من الصحابة والتابعين. والمجسمة والمشبهة يتصورون الله في صور حية. والمعتزلة يؤولون النصوص لإثبات مبادئهم: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والمنزلة بين المنزلتين. وأن الإنسان حر الإرادة، ولذلك يسأل عما يفعل. وأن العمل جزء الإيمان فمن ترك العمل فهو

وسالك هذا الطريق: إما أن يكون من قبل الالتفات إلى ما جاء في الكتاب والسنة وكلام أولي الفضل من الراشدين قديما وحديثا فذلك هو الحكيم العملي والمؤمن المتوسط.

وإما أن يكون – مع ذلك – قد سلك بنفسه مدارج الأنوار ووقف على ما في ذلك من دقائق الأسرار حتى جلس في حياته تلك في مقعد صدق عند مليك مقتدر. فهو الصوفي.. وفي هذا مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى. وهذا وما قبله يشملهما اسم المؤمن الصادق..).

***

وليست الدراسة المنجحة هي التي تملأ الرأس بالمعارف. أو تجعل الرجال نسخا من المؤلفات بل التي تهيئهم لإدراك الحقائق وابتكار الأفكار، وتبلغ شأوها إذا مكنت الرجل الواحد من أن يصنع على عينه رجالا يصنعون رجالا آخرين. وهكذا دواليك.

ومن هذه الناحية يبدو منهج جمال الدين في تكوين الرجال أنجح المناهج، وحلقته أعظم الحلق آثارا [11] خرجت فتية كانوا أغمارا، حتى جرى فيهم تياره مجرى الكهرباء في الأشياء: محمد عبده – وسيدعوه (صديقي الشيخ) ولما بارح مصر قال: (حسبكم محمد عبده).

بين منزلة الكفر ومنزلة الإيمان. والأشاعرة يسيرون بالعقل في حدود الشرع. والله يأمر الناس بأوامر، ليقبلوا أو يتركوا. وهو يكلفهم بالمقدور عليه.

فالأمر لا يسلب الإرادة بل يستعملها. والقول بأن العبد مجبور على الفعل معناه أنه يكسب الفعل ولا يخلقه فالله يخلقه بقدرة فاعله وقيامه به فإرادة العبد جزء من كسب الفعل والله خالق على الدوام.

والأشاعرة يؤولون النص عند اللزوم وابن تيمية لا يؤول وإن كان عماد فكره أن الله تعالى (ليس كمثله شيء) فلا ضير من عدم التأويل.

(١١) من أقواله التي تنم عن منهجه في تكوين الرجال:

- ألف قول لا تعد في الزمان عملا واحدا.
- صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس.
- قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد ألا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشأوا خلقا جديدا فحبذا لو لم يبق منهم إلا من هو دون الثانية عشرة من العمر عندئذ يتلقون تربية تسير بهم في طريق السلامة.
- صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا.
- أمه تطعن حاكمها سرا وتعبده جهرا غير جديرة بالحياة.

ثم عبد الكريم سلمان وإبراهيم اللقاني وإبراهيم الهلباوي ومحمود سامي البارودي وأديب إسحق وعبد السلام المويلحي ولطيف سليم وعبد الله نديم. وأخيرا ورد الحلقة "سعد زغلول" – ويسميه جمال الدين سعد الزغلول – وستأتيك أنباؤهم وأعمالهم وأعمال صحبهم على مدى قرن كامل في حياة مصر – نفخ فيهم من روحه وعلمهم التفكير الحر، وحبب إليهم الكتابة والخطابة فأصبحوا كتابا مشاهير وخطباء مصاقع وفقهاء ليس لهم نظراء، وثوارا أحرارا، فتألف من تفكيرهم وتعبيرهم وسلوكهم ومن صحو المجتمع على أحداث مصر الدولية وانتشار الأنباء العامة، رأي عام يعارض الحكام، في الفترة القصيرة التي لبثها "السيد" بمصر من ١٢٨٨ إلى ١٢٩٦ مارس ١٨٧١ إلى أغسطس ١٨٧٩م.

وفي سنة ١٨٧٦ قامت حرب بين تركيا – صاحبة السيادة الشرعية على مصر – وبين روسيا فجذبت انتباه الصحافة والرأي العام، وتكون في المثقفين اتجاه للمطالبة بالحرية لا يغاضبه الخديو، بل كان يستعمله، ليقاوم به التدخل الأوربي في السياسة المصرية.

ولاغرو إذا شهدنا محمد عبده طليعة هذا الاتجاه الوطني والثقافي: فهو من أول كتاب صحيفة الأهرام. لم تكد تصدر حتى كان في العدد الخامس في سبتمبر ١٨٧٦ واحدا من كتابها، وفي العدد الثامن نقرأ له مقالا بعنوان (الكتابة والقلم) تقدمه بقوله: (الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالأزهر) وتحتفي في عدد تال (بجناب العلامة الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالأزهر) ثم يتعالى التقدير في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ في العدد ٣٦ فهو (الأديب الفاضل الأريب أحد أهل العلم بالأزهر) ولما كتب مقاله في (العلوم الكلامية. والدعوة إلى العلوم العصرية) نعتته بأنه (جناب العالم العلامة).

- إذا صح أن من الأشياء ما لا يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال.

امتحان العالمية:

وفي العام التالي تقدم لامتحان العالمية تسبقه سمعة تطن في آذان الأزهريين. قال: (عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى ١٢٩٣ (١٨٧٧) وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثرين من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش. وكان يعاديني، على الغيب، اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة..).

وما عادوه وحده وإنما كانوا يعادون "السيد" جمال الدين وتلاميذه الكاتبين في الصحف، أو الآخذين بعلوم الكلام، أو الداعين إلى العلوم العصرية، وقد ارتكب محمد عبده ذلك كله. ولذلك توقف الممتحنون في إنجاحه. وتدخل بينهم وبينه الشيخ محمد المهدي (١٨٩٧) شيخ الأزهر ورئيس لجنة الامتحان قائلا: لو أعرف درجة فوق العالمية من الدرجة الأولى لمنحتها له – وطال توقف الممتحنين حتى صالحوا الرئيس على ألا يمنحوه الدرجة التي يستحقها عنده ويمنحوه درجة لا يستحقها عندهم.. فمنح الدرجة الثانية!

هكذا تخرج في الأزهر وفي قلبه من الأسى عليه ما سوف يصحبه في قبره، فيجعل من إصلاحه مشغلة حيته، مذ كان إنصاف تلميذ فيه، صاحب فكر، مثار معركة! وكان أساس الصلح فيها أن يخسر أطرافها الثلاثة ويخسر الأزهر!

***

لم يضيع العالم الجديد وقته فجلس للتدريس في الجامع الأزهر. ولم يتردد في تدريس ما يعتقده. وساعدته السماء بعدلها وظلم الناس له:

كان الشيخ محمد عليش (١٢٩٩) فقيه المالكية الأشهر وله شرح على مختصر خليل كشروح الخرشي والدردير والدسوقي، وله فتح العلي المالك على مذهب الإمام مالك (مجموع فتاوى عليش)، لا يتذمم إذا أخذ مأخذا على عالم من أن يشتمه في حلقته كما صنع مع الشيخ حسن الطويل.

وفي ذات يوم أبلغه ابن له يدرس بالأزهر أن خريجهم الجديد يدرس العقائد النسفية للتلاميذ وأنه يرجح مذهب المعتزلة على مذهب الأشاعرة فدعاه إليه.

قال: أتدرس العقائد النسفية؟ وأجاب بالإيجاب.

قال: هل رجحت مذهب المعتزلة؟

قال: إذا كنت أترك تقليد الأشعري فلماذا أقلد المعتزلي؟ إذن أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل.

قال الشيخ عليش: أخبرني الثقة بذلك.

قال محمد عبده: هلم الثقة الذي يشهد بذلك. فليميز بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت.

قال الشيخ عليش: أو مثلك يفهم شرح العقائد النسفية!

قال: سلني إن شئت.

وكبرت مراجعته للشيخ على نفوس الصغار، فأججوا النار. قالوا: إنه يرسل شعره ويجمعه تحت العمامة!! ثم أخذوا عمامته فتركها، وانصرف حاسر الرأس احتراما لشيخ تولى كبره.

وفي الغداة عاد إلى درسه وفي يمينه عصا وقال: إذا جاء الشيخ بعكازه، فله العصا.

***

واتسعت حلقة العالم الحديث بعيدا من الأزهر، فأمسى في منزله يلقي درسا في كتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه، بل يلقي درسا في كتاب فرانسوا جيزو – رئيس وزراء فرنسا في القرن الماضي – L'Histoire de l'Europe depuis la Chute de l'Empire Romain ترجمه إلى العربية نعمة الله خوري وسماه (التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية)، وقرظه محمد عبده حين ظهوره بمقال لفت إليه الأنظار قبيل امتحان العالمية. وربما كان المقال سببا لسخط الممتحنين عليه. أو كان سخطهم سببا لتدريسه. لكن ما ف الكتاب من علم كان مصلحة للأمة وله.

فما اسعد دارس التاريخ الإسلامي إذ يسعفه العلم بالتاريخ العالمي فيزداد يقينا بمعجزة انتشار الإسلام وانتصار أصحابه بالتزام مبادئه التي تحاربها الوثنية المسيطرة على حضارة أوربا المعاصرة.

وأسمع بالمبادئ وأبصر في قول عمر لسعد بن أبي وقاص: (إني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال. فإن تقوى الله أفضل القوة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم. فإذا

استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة..) وقول صلاح الدين لقواده: (لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل).

وفي العالم التالي (١٢٩٥ – ١٨٧٨) جاءته النصفة من إصراره على تدريس التاريخ في غير الأزهر. فعين مدرسا للتاريخ في دار العلوم [١٢] فدرس للتلاميذ (مقدمة ابن خلدون) بل أضاف إليها كتابا وضعه في "علم الاجتماع والعمران" وبهذا الدرس أحيا ذلك الكنز العلمي الدفين. وسيتابعه فيه طه حسين إذ يقدم فيه إحدى رسالتيه للدكتوراه بعد أربعين عاما.

وفي العام ذاته جاء تأييد جديد، من غير الأزهر أيضا، إذ عين مدرسا للعلوم العربية في مدرسة الإدارة والألسن [١٣]. التي ستصبح مدرسة الحقوق.

---

(١٢) أنشأها في سنة ١٨٧١ في عصر إسماعيل علي باشا مبارك نابغة المهندسين العسكريين من بعثات محمد علي إلى فرنسا، وتغيا من إنشائها إنقاذ العلوم العربية من فساد الطريقة الأزهرية في ذلك الزمان. واستغل لإنشائها ونشر المدارس في مصر وإنشاء دار الكتب، كل سلطاته وإمكانيات الإدارات (الوزارات) التي تولاها في حكم إسماعيل (التعليم والأوقاف والأشغال) فبأموال الأوقاف وفي دور الأشغال تعلم التلاميذ بعد أن أقفل عباس الأول معاهد العلم التي أنشأها محمد علي.

ومن مقولاته الذائعة: (كل إصلاح سياسي لا يرتكز على الإصلاح التعليمي سراب) وهو الذي أمر بطبع كتاب مرشد الحيران لقدري باشا في انتظار يوم تقدر الدولة فيه على تطبيق قانون من الشريعة تنفيذا لقرار من وزرة شريف باشا.

(١٣) أنشأها محمد علي سنة ١٨٣٦ وجعل على نظارتها رفاعة بك رافع الطهطاوي، فأضاف رفاعة بك إلى مناهج الألسن الفرنسية والإنجليزية منهجا في تدريس الشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية ولما أنشئ معهد الفقه الإسلامي صار رئيسا له كما ولي رياسة الوقائع المصرية زمانا. وسيتخذ منه محمد عبده مرشدا له ومن دار، ملجأ ومن ابنه صديقا.

وسترى محمد عبده يتحرك في نطاق الأغراض العلمية لهذه المعاهد وإن امتاز بأنه أضاف إلى وفائه بالتعليم المطلوب منه أعمالا أكبر. وفي دار العلم التقى بالشيخ حسن المرصفي وفي مدرسة الألسن التقى بالشيخ حسونة النواوي وسيصحب كلا منهما طول حياة كل منهم.

فهذا الخريج الجديد من الأزهر يتلاقى مع أغراض المدرستين الجديدتين، و"المعلمين" الكبيرين اللذين يقترن اسماهما بهما، في أنه طلبة الجميع للإصلاح وإن تنوعت الحاجات والاتجاهات. وفيه يجتمع الكثير من آمال بلاده لاجتياز الفجوة بين القديم والجديد، سواء آمال أصحاب دار العلوم أو أصحاب مدرسة الألسن.

obeikandl.com

الثورة الأولى.. والنفي الأول

كانت إنجلترا وفرنسا تتسابقان على النفوذ في مصر منذ جلاء نابليون وانهزمت عنها إنجلترا مرة إثر أخرى، ولكنها بلغت أغراضها بتدمير جيوش مصر وأسطولها وإمبراطوريتها، وكرست ذلك في حياة محمد علي "بمعاهدة لندن" سنة ١٨٤٠. وفي عهد إسماعيل دمرت الإمبراطورية المصرية في أفريقية ولفت حول عنق مصر حبال الدائنين، وألزمت إسماعيل أن يعين رئيس وزراء أرمنيا (نوبار) ووزيرا إنجليزيا للمالية وفرنسيا للأشغال توطئة لشهر إفلاسه واحتلال بلاده.

ولما دعا إسماعيل مجلس النواب للتاسع من المحرم سنة ١٢٩٦ (٢/١/ ١٨٧٨م) كثر فيه نقد الحكومة. وهاج النواب وعلى رأسهم تلميذ جمال الدين عبد السلام المويلحي نائب القاهرة. ثم أثار وزير المالية الإنجليزي الضباط بإنقاص عدد الجيش وتأخير رواتبهم. فهاجموه في الطريق بزعامة لطيف سليم بك [١٤] في ١٨/ ٢/ ١٨٧٩ وقبض أحدهم على نوبار من شاربيه وسقطت الوزارة. ومع ذلك دخل الوزيران الأجنبيات الوزارة الجديدة برياسة ولي العهد محمد توفيق باشا فسافر نوبار يحرض أوربا على خلع إسماعيل.

وكان جمال الدين – ومحمد عبده في جواره [١٥] – قد اسسا حزبا في مصر باسم الحزب الوطني الحر من أغراضه السعي لتنازل الخديو. وكان ولي العهد محمد توفيق على صلة به. بل كان يقول لجمال الدين على ملأ من الناس (أنت موضع أملي في مصر أيها السيد).

---

(١٤) ابن سليم باشا الحجازي (١٨٥٥) الذي قاد ألوية إبراهيم باشا المظفرة – تقلب لطيف (باشا) فيما بعد في الوظائف التي حتى صار رئيسا فخربا للمحاكم المختلطة وكان من أصحاب محمد عبده. ولما مات سنة ١٩٠٧ كتب مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم أن سبب انتكاس صحته سنة ١٩٠٨ موت صديقه لطيف سليم. وفي بيته كان سعد زغلول ومصطفى كامل يجتمعان كما روى ابن فؤاد باشا.

(١٥) في ٣/ ٦/ ١٨٧٩، نشرت جريدة التجار بالإسكندرية ثم جريدة مصر في ٥/ ٦/ ١٨٧٩ تلخيصا لمجلس جمال الدين بقلم محمد عبده وقدمت الجريدة محمد عبده بقولها (وردت إلينا المقالة الآتية من حضرة مظهر نور الجمال والجلال ومطلع بدر الحكمة والكمال العالم الفاضل الأستاذ الشيخ محمد عبده مدرس علم الكلام الأعلى بالجامع الأزهر).

وخلعت تركيا إسماعيل في ٢٦/ ٦/ ١٨٧٩ استجابة للإنجليز والفرنسيين ونفته إلى إيطاليا ليموت في أسطنبول ١٨٩٥ وولت مكانه "توفيق" فبادر بتعطيل الحياة النيابية ونفى موضع أمله في مصر إلى خارج مصر.

أما محمد عبده فعزله الخديو من وظائفه ونفاه من القاهرة دون أي مصري آخر، فرحلوه إلى قريته محلة نصر فكان يغافل رقباءه ويسافر إلى القاهرة فيستكن وجه النهار في المكتبة بدار رفاعة بك، حتى إذا جن الليل سرى إلى صحبه بالقاهرة.

وبهذا اقترن بالأحداث الكبرى في تاريخ بلاده، وهو لم يكد يبلغ الثلاثين.

لقد جعله الشيخ درويش يجد نفسه فيتجه إلى العلم العظيم، وجعله جمال الدين يجد طريقه ويتجه إلى العمل العام، وجعله الخديو أبعد الناس من معاهد العلم وميادين العمل، وأقربهم إلى مقاليد القيادة.

obeikandl.com